الإنسان كعالم صغير في رسائل النور
لبديع الزمان سعيد النورسي

د. جورج غريغوريΨ

إن مسألة الذات أو الأنا (هذا هو المصطلح الذي يستخدمه النورسي في كتاباته) تقع في صدارة المسائل التي يتطرق إليها العلماء المسلمون في معظم أعمالهم، منطلقين في تحليلهم من الآية الثانية والسبعين من سورة الأحزاب "**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**".

إذن، في الكون كله، ليس إلاّ الإنسان الذي قبل بأن يخزن الحقيقة أو بأن يتحمل المسؤولية، وهذا التحمل بعينه جعل الإنسان متميزاً عن باقي المخلوقات، كما جعله مسؤولاً عن أعماله معطياً له "إنسانيته".

بهذا الصدد، هذا البحث ليس إلا محاولة لعرض هذه المسألة بتسليط الضوء على النتائج التي حصلنا عليها بهذا الخصوص من خلال مطالعتنا للعمل العظيم لبديع الزمان سعيد النورسي وهو "رسائل النور" وبالأحرى **الكلمة الثلاثين** من مجلد "الكلمات" تحديداً.

ويعتبر النورسى أن أحد ظواهر الأمانة أو المسئولية المحمولة على عاتق الإنسان هو من خلال الأنا — وهو عبارة عن فردية كل إنسان – الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف الربوبية الجليلة وشؤونها المقدسة..

يلخص الكون العظيم في نفس الإنسان، فالإنسان في ذاته عالم صغير. هذا الإنسان يستطيع أن يفهم الله بصفاته المطلقة من خلال حدود الأنا الوهمية. هذا وغيرها من جوانب الأنا حسب وجهة نظر النورسي سوف تُحلل في بحثي هذا.

Ψ أستاذ اللغة العربية في جامعة بوخارست – رومانيا. من أهم أعماله: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الرومانية (طبعت عام 2000 في بوخارست).

مقدمة

أولاً:لقد اخترنا أن نبدأ هذا البحث بالآية من سورة الأحزاب من القرآن الكريم محاولاً حل لغز طلسم الخلق.

ثانياً: إن الله جل جلاله وضع بيد الانسان امانةً هي: " انا ". الأنا هو المفتاح إلى أسماء الله الحسنى، وعلى هذا الأساس يصبح المفتاح إلى طلسم الخلق المقفل. وأعطي هذا المفتاح بيد الإنسان، ومتعلق بنفسه من خلال مشيئة وقدرة الله وهذا جانب آخر للأمانة.

وبهذه الأمانة أي الأنا الذي هو مجرد وحدة قياس، تسمح للإنسان أن يدرك بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية. وبالرغم من أنه مجرد افتراض ليس له وجود حقيقي وليست هناك حاجة لإثبات وجوده بالعلم المحسوس والأدلة، وليس له شكل و لا صورة. وليس له معنى في ذاته.. بالرغم من ذلك فإن له دلالة بمعنى أنه يبين معنى الأشياء أكثر مما يبين نفسه للغير. لذلك يماثل الأنا حرف الألف في كتاب الخصائص البشرية.

وكما سنرى فيما بعد فإن الأنا يظهر بوجهين:

وجه متوجه إلى الخير والوجود؛ فهو في هذا الوجه يتلقى الفيض ويقبله فحسب، أي يقبل الإفاضة عليه فقط؛ إذ هو عاجز عن إيجاد شئ في هذا الوجه، أي: ليس فاعلاً فيه، لأن يده قصيرة لا تملك قدرة الإيجاد.

والوجه الآخر متوجه إلى الشر، ويُفضي إلى العدم؛ فهو في هذا الوجه فاعل، وصاحب فعل.

والأنا هو العدسة التي ندرك من خلالها الكون ونصبح واعين بأنفسنا ومعرفتنا بالكون. وعند ذلك نعبد الله العبادة الحقيقية. أما عناصر الطبيعة فهي، خشية من الشرك بالله، رفضت الأمانة التي عُرِضَت عليها.وفي برهنة النورسي التالية، سنرى فيها أن لهذا الخوف أساس من الصحة، إذ يقول:" إن إشفاق السموات والارض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهن من شرك موهوم مفترض، انما هو من هذا الوجه من "الانانية" التي تُولِّد جميع انواع الشرك والشرور والضلالات".

ويوجد فى عالم الإنسان خطي التفكير – قديمان مثل قدم العالم – وهما لا يتغيران لأنهما محفوظان إلى أيامنا هذه كما كانا في أيام آدم. أحدهما خط النبوة والدين والآخر خط الفلسفة. "فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، أي في أي وقت أو عصر إستجارت الفلسفة بالدين وانقادت اليه واصبحت في طاعته، انتعشت الانسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة. ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد

النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة".

هاتان الطريقتان للفهم والنظر إلى العالم يمكن مقارنتهما بشجرتين ينتشر تأثيرهما أي فروعهما وظلهما في كل الاتجاهات مسيطرة على كل شئ.

وفى الواقع يمكننا تشبيه خط الفلسفة السيئة والمضلة بصورة شجرة زقوم حيث فرع العقل يحمل أثمار الزندقة والمادية والطبيعية، بينما فرع العواطف يحمل نماذج الطغيان في العالم مثل نمرود وفرعون وشداد وأخيراً فرع ضعف الإنسان وشهواته الحيوانية مثقل بالآلهات وبالأصنام وغيرها من الأشياء التي منح لها الإنسان صفةً الألوهية. وهذا هو أسوأ الكبائر: الشرك بالله.

"وبجانب هذه الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، نشأت شجرةُ طوبى العبودية للّه، تلك هي سلسلة النبوة، فاثمرت ثمرات يانعة طيبة في بستان الكرة الارضية، ومدّتها الى البشرية، فتدلّت قطوفاً دانية من غصن القوة العقلية: انبياء ومرسلون وصديقون واولياء صالحون.. كما اثمرت في غصن القوة الدافعة: حكاماً عادلين وملوكاً طاهرين طهر الملائكة.. واثمرت في غصن القوة الجاذبة: كرماء واسخياء ذوي مروءة وشهامة في حسن سيرة وجمال صورة ذات عفة وبراءة.. حتى اظهرت تلك الشجرة المباركة:

ان الانسان هو حقاً اكرم ثمرة لشجرة الكون".

هاتان الشجرتان تمثلان في رأى النورسى وجهين للأنا وسوف نحللهما لنرى ما يسبب فراقهما واضعين كأمثلة لهذه الحقائق بعض الأدلة كالتالي.

الوجه الأول: الذي يتطلع الى حقائق النبوة: هذا الوجه منشأ العبودية الخالصة لله. أي أن "أنا" :يعرف أنه عبدٌ لله، ومطيع لمعبوده.. ويفهم انه دال على معنىً في غيره.. ويعتقد ان وجوده قائم بوجود غيره وبايجاده.. ويعلم ان مالكية موقتة ظاهرية باذن مالكه الحقيقي.. وحقيقته ظلية – ليست اصيلة – أي انه ممكنٌ مخلوق هزيل، وظلٌّ ضعيف يعكس تجلياً لحقيقة واجبة حقة.. أما وظيفته فهي القيام بطاعة مولاه، طاعة شعوريةً كاملة، لكونه ميزاناً لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتعرف على شؤونه سبحانه.

هكذا نظر الانبياء والمرسلون عليهم السلام، ومَن تبعهم من الاصفياء والاولياء، الى "انا" بهذا الوجه. وشاهدوه على حقيقته هكذا. فادركوا الحقيقة الصائبة، وفوّضوا المُلك كله الى مالك الملك ذي الجلال، واقرّوا جميعاً، ان ذلك المالك جل وعلا لا شريك له ولا نظير، لا في ملكه ولا في ربوبيته ولا في الوهيته، وهو المتعال الذي لايحتاج الى شئ،

فلا معين له ولا وزير، بيده مقاليد كل شئ وهو على كل شئ قدير. وما "الاسباب" إلاّ أستار وحُجب ظاهرية تدل على قدرته وعظمته.. وما "الطبيعة" إلاّ شريعته الفطرية، ومجموعة قوانينه الجارية في الكون، اظهاراً لقدرته وعظمته جل جلاله".

وهكذا وبعكس ما يؤكده الفلاسفة فإن الماضي ليس مملكة عدم الوجود، بل هو حديقة منيرة تسكنها الأرواح التي غادرت هذا العالم والتي هي الآن حرة وسعيدة، ينتظرها هناء خالد.

الوجه الثاني: أن للفلسفة منظور معاكس تماماً في إدراك الأنا، فهو لا يحمل أي معنى آخر إلا معناه الخاص به. وهذا يعني أنه يوجد بنفسه، ووجوده ضروري وجوهري. وهناك صفات خاطئة منسوبة إلى الأنا كما تراها الفلسفة: فهو يملك حياته الخاصة به وكونه سيد نفسه وباعتباره حقيقة ثابتة. وكل هذه الدلائل توضح أن الفلسفة قائمة أصلاً على أسس زائفة فمن الخطأ أن يُعتبر أن في جوهر الأنا يكمن الحب لذاته..

معظم الفلاسفة المشهورين مثل أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابى اعترفوا بأن الهدف النهائى للبشرية هو تحقيق مطابقتها للخالق العظيم. كما فعل فرعون بالضبط، "وذلك بتهييجهم "الانانية" لتجري طليقة في اودية الشرك والضلالة، فسدّوا سبيل العبودية الى الله، وغلّقوا ابواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الانسان، فضلوا في أوحال الطبيعة ولا نجوا من حمأة الشرك كلياً ولا اهتدوا الى باب الشكر الواسع".

أما الثمرات التي قدمتها تلك الشجرة الخبيثة، شجرة زقوم، الى انظار البشر فهي الاصنام والآلهة في غصن القوة البهيمية الشهوية؛ اذ الفلسفة تحبذ أصلاً القوة، وتتخذها اساساً وقاعدة مقررة لنهجها، حتى ان مبدأ "الحكم للغالب" دستور من دساتيرها، وتأخذ بمبدأ "الحق في القوة" [1] فاعجبتْ ضمناً بالظلم والعدوان، وحثت الطغاة والظلمة والجبابرة العتاة حتى ساقتهم الى دعوى الالوهية.

ثم انها ملّكت الجمال في المخلوقات، والحُسن في صورها، الى المخلوق نفسه، والى الصورة نفسها، متناسية نسبة ذلك الجمال الى تجلي الجمال المقدس للخالق الجميل والحُسن المنزه للمصور البديع..

فالذين هم في مسار النبوة حكموا حكماً ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا: ان الغاية القصوى للانسانية والوظيفة الاساسية للبشرية هي التخلق بالاخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة — التي يأمر بها الله سبحانه – وان يعلم الانسانُ عجزَه فيلتجىء الى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد

فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر الى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعـــرف قصـــوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى".

ولكن بعد سلوك طريق يختلف عن طريق الدين الحنيف، فالأنا أصبح يضل في يـــد الفلاسفة الذين يشركون بالله أصناماً وآلهة كأسياد للبشرية. وأثبت التـــاريخ البشـــرى مدى الخطأ الذي هم عليه: وهو أن قوة الله وكماله يمكن أن يشترك معه فيهما الآخرون بطرق مختلفة. فقالوا أن القوي على الصواب وكل السلطة للأقوى والفائز يأخذ كـــل شيء ووجهة النظر هذه للقوة، أبرزت الحكام الظالمين والطغاة في الدنيا كلها.

وإشارةً إلى مجال الفن والمهارة في خلق الجمال، يتبين خطأ الفلاسفة عندما يعتقدون بأن خلق مثل هذا الجمال والكمال يمكن نسبه إلى البشـــر، دون الاعتـــراف بنـــــزعه المقدس وأكثر من ذلك هم يعبدون ويقدسون مثل هذا الجمال الزائف الوهمي خاضعين أنفسهم لأصنام مزورين.

وسنذكر الأمثلة التي ضربها النورسي لكى نعبر الخط بين الطـــريقين الموصـــلين إلى إدراك العالم.

المثال الأول. هو هدف البشرية إلى بلوغ الكمال– أو حسب المصطلحات الفلسفية – محاولة تقليد الله، في حين أن النبوة والدين يعلمان الإنسان أن يكون متواضعاً أمـــام قدرة الواجب الوجود مع الوعي بضعفه وعجزه. آخذاً بعين الاعتبـــار بـــأن الإنســـان ضعيف جداً وعاجز، لا يمكن مقارنته بصفات الله القدير المطلق.

والمثال الثاني. أحد المبادىء المرسل مع النبوة هو أن الحياة الاجتماعية تُـــبنى علـــى أساس التعاون المتبادل وتتمتع بها بمعنى أن كل الكائنات الموجـــودة يجـــب أن تســـاعَد وتُدعم. وعلى الجانب الآخر، الفكرة التي ترسخ الفلسفة أسسها عليها – وهي أن الحياة ليست إلا مجرد صراع – تفتح الباب على مصراعيه لدخول الطغاة الغشماء.

المثال الثالث. تؤكد النبوة على مبدأ الوحدة بمعنى أن كل فرد لـــه وحـــدة وكـــل الموجودات لها وحدة متجمعةً تنطلق كلها من واحد فقط لأنها مخلوقة من قبـــل واحـــد وهو الخالق المجيد. وعلى عكس ذلك، تقول الفلسفة إن مـــن أي شـــيء لا يمكـــن إلا اشتقاق شيء واحد من خلال الوسطاء. وهذه فكرة مضلة لأن الله لا يمكن أن يكون له شريك أو وسيط.

المثال الرابع ."انه من الدساتير الحكيمة للنبوة، ان لكل شئ حكَماً كثيرة ومنافع شتى حتى ان للثمرة من الحكَم ما يُعدّ بعدد ثمرات الشجرة.. فان كانتَ هناك نتيجة واحدة – لخلقِ ذي حياة – متوَجهة الى المخلوق نفسه، وحكمة واحدة من وجوده تعود اليه، فان آلافاً من النتائجً تعود الى خالقه الحكيم وآلافاً من الحكم تتوجه الى فاطره الجليل.

أما دستور الفلسفة فهو "ان حكمة خلق كل كائن حي وفائدته متوجهة الى نفسه، أو تعود الى منافع الانسان ومصالحه"! هذه القاعدة تسلب من الموجودات حكَماً كثيرة انيطت بها، وتعطي ثمرة جزئية كحبة من خردل الى شجرة ضخمة هائلة، فتحوّل الموجودات الى عبث لاطائل من ورائه".

ومن نتائج هذه الفلسفة: أنه بسبب الأُلفة والتوغل في الماديات والشهوات كأن "أنا" يتصلب، ثم تعتريه الغفلة والإنكار فتتجمد تلك "الانانية". ثم بالعصيان لاوامر الله يتكدر ويفقد شفافيته ويصبح قاتماً. ثم يستغلظ شيئاً فشيئاً حتى يبتلع صاحبه. بل لا يقف "انا" عند هذا الحد.. بل يأخذ طور الخصم للاوامر الإلهية.

هذا وينكر الفلاسفة فكرة البعث والآخرة وينسبون الأنا إلى الأزلية و هذا يحسب من أخطائهم وضلالهم. برأيهم الطبيعة صنم على مستوى العالم الكبير كما أن الأنا على مستوى العالم الصغير. أما جواب الدين لهذه المسألة فهو في القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية الـ256منها:

"فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ".

الخاتمة:

نعتقد أن أفضل طريقة ننهى بها النقاش هي ذكر الآية السابعة من سورة الفاتحة بالتأكيد على الطرق الثلاثة المشار إليها كالتالى :

"صِرَاطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ."

فالطريق الأول (المشار إليه بـ"الضالين") هو للذين يتبعون فلسفة الطبيعية.

والطريق الثانى (المشار إليه بـ "المغضوب عليهم") هو للفلاسفة المشائيين الذين ينسبون الخلق إلى وسطاء. وبهذين الطريقين يحاول الإنسان إلقاء الضوء على الحقيقة المطلقة ومعرفة الله من خلال العقل والفكر.

و أخيراً، الطريق الثالث (المشار إليه بـ "الذين أنعمت عليهم") هو الطريق المستقيم لأهل القرآن وهو أسهل وآمن طريق ، مفتوح أمام الكل كما يقول النورسي.

المراجع:

بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات ، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، 1992.